

## دراسة في الفرق بين الخير والشر، ومطلقية موقعهما أو نسبته

### الفرق بين الخير والشر وجذورهما في الحياة الإنسانية

تخيّل أنّك وجدتَ محفظة نقود ملقاةً في الطريق؛ فهل تعيدها إلى صاحبها أم تعتبرها غنيمةً لتحتفظ بها لنفسك؟ هذه اللحظة العابرة ليست مجرد واقعة عادية، بل هي مرآة لصراع جوهري في أعماق النفس البشرية، صراع بين قوتين متضادتين: الخير والشر. كل إنسان يحمل في داخله نزاعاً نحو الخير، كما يكمن فيه دافع خفيّ للاستسلام للشر. إنها معركة داخلية تتجلى في أفكارنا، وتنساب في مشاعرنا، وتنعكس في قراراتنا وخياراتنا اليومية. فالحياة ليست سوى ساحة لهذه المواجهة المستمرة. ليس الخير والشر مجرد مفهومين تجريديين، بل هما حاضران في أدق تفاصيل الوجود الإنساني، وقدرتنا على التمييز بينهما تحدد مسار مصيرنا. ولكن، ما الفرق بين الخير والشر؟ ما الذي يجعل فعلاً ما خيراً، وآخر شراً؟ والأهم من ذلك: ما المعايير التي تُمكننا من إدراك الحدود الفاصلة بين هاتين القوتين؟

ليس الخير والشر مجرد أوصاف لأفعالنا وظواهر سلوكنا، بل هما قوى أساسية تمتد جذورهما إلى أعماق النوايا والدوافع والقيم الراسخة في باطن كل إنسان. الخير قوة تهدي المرء إلى الارتقاء الأخلاقي، وترتبط أشد الارتباط بغايات سامية للإنسان وبمعنى عميق لوجوده. أما الشر فهو انحراف عن طريق الكمال، وابتعاد عن "الأنا الحقيقية"، يقود المرء إلى الانحدار والفساد.

تسعى هذه المقالة إلى تسليط الضوء على التباين بين الخير والشر من زوايا متعددة، ودعوة القارئ إلى تأمل اختياراته وأفعاله، انطلاقاً من قناعة بأنّ الإدراك الواعي لهذا التمييز لا يحدد فقط المسار الفردي والأخلاقي للمجتمع، بل هو أيضاً شرط لنيل السعادة الأبدية وتحقيق غاية الخلق.

### تعريف الخير والشر

لكي نتمكن من بيان الفارق بين الخير والشر، نحتاج أولاً إلى تحديد معناهما. فالخير والشر من المفاهيم التي لم تغب يوماً عن ساحة الفكر والضمير الإنساني. فمنذ الأساطير والقصص القديمة، مروراً بالفلسفات العميقة، وصولاً إلى الديانات الكبرى، ظلّ الإنسان يسعى إلى فهم هذين المفهومين وتمييز أحدهما عن الآخر في مسيرة حياته. لكن يبقى سؤال جوهري: ما هو الخير؟ وما هو الشر؟ وكيف يمكن أن نفرّق بينهما؟

## ما هو الخير؟

الخير هو كل ما يدفع الإنسان نحو الكمال، والسعادة، والحقيقة الإنسانية. بعبارة أخرى، الخير مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقومات النمو والهناء الإنساني من فرح، وطمأنينة، ومحبة. لنتصور مثلاً أنك في طريقك إلى البيت، فرأيت شخصاً محتاجاً إلى المساعدة، فمددت له يد العون بدافع الشفقة. إن فعلتك هذه ليست مجرد خدمة اجتماعية عابرة، بل هي انعكاس لصفة من صفات الله "الرحمن" التي تحاول أن تغرسها أو تنمّيها في ذاتك. ومن هنا، فإن عملك الخير ليس استجابة لحاجة آنية فحسب، بل هو خطوة على طريق تحصيل القيم الإلهية والنمو الروحي. في مثل هذه اللحظات، يذوق الإنسان طعم الكمال الإنساني، ولو كان ذلك الإحساس عابراً قصير الأمد.

## الخير في منظور فلسفي

من زاوية فلسفية، نظر فلاسفة كبار مثل أفلاطون وأرسطو إلى الخير باعتباره أمراً مطلقاً وعالمياً. [أفلاطون](#) شبّه الخير بالشمس، فهو مصدر النور والحقيقة، وكلما اقترب الشيء من الحقيقة كان أقرب إلى الخير. أما أرسطو فكان يرى أنّ غاية الإنسان القسوى هي بلوغ "السعادة الحقيقية" (إيدايومونيا)، وأن الأفعال الصالحة هي سبيل إلى هذه السعادة المنشودة.

## ما هو الشر؟

يتجلّى الفرق بين الخير والشر بوضوح في أنّ الشر يقف نقيضاً للخير تماماً، فهو ابتعاد عن الحقيقة وانفصال عن كمالات الإنسان. وغالباً ما يُطلق الشر على أفعال تُقصي المرء عن السعادة والازدهار، وتدفعه نحو فساد النفس أو الإضرار بالمجتمع في الدنيا والآخرة. غير أنّ اللافت في الشر أنّه لا يكون دائماً ظاهراً أو فاضحاً، بل قد يختفي خلف ستار من التضليل. فكثير من وجوه الشر تتزيّن في صورة منافع آنية أو متع عابرة، لكنها في نهاية المطاف لا تثمر إلا الدمار. تأمل مثال الاستيلاء على محفظة ضائعة: للوهلة الأولى قد يبدو خياراً بسيطاً ومغرياً، إذ قد تظن أنّه سيزيد مالك ويبسّر حياتك. لكن الحقيقة أنّ مثل هذا الفعل يجرح الضمير، ويضعف الثقة بين الناس، ويخلف آثاراً ثقيلة كالندم والشعور بالذنب والانفصال عن القيم الإنسانية. إنّ الشر كمنحدر زلق، يجرّ الإنسان تدريجياً إلى أعماق الظلمة والفساد.

## الشر في منظور الفلسفة

ذهب بعض الفلاسفة، مثل **أوغسطين**، إلى أنّ الشر ليس قوة قائمة بذاتها، بل هو "غياب الخير". فهو ليس وجودًا مستقلًا، وإنما فراغٌ من النور والحقيقة. ومن هذا المنظور، لا يظهر الشر إلا عندما يستخدم الإنسان إرادته الحرّة لينأى بنفسه عن الخير ويتوجّه إلى الأغراض الدنيئة.

### ٢٨ الخير والشر؛ اختيار يتجاوز حدود الخير والشر في الحياة اليومية

لا يقتصر الفرق بين الخير والشر على مجرّد التضاد بين الحسّن والسيئ؛ بل هو أعمق من ذلك بكثير. فالخير نور يهدي الإنسان إلى الحقيقة والنمو الإنساني، كمعونة محتاجٍ تمنح فعلنا بُعدًا إنسانيًا، وتدعم في الوقت نفسه أسس الأخلاق في المجتمع. وعلى النقيض، فإن الشر أشبه بظلّ ثقيلٍ يتخفّى وراء إغراءاتٍ خادعة. فالاستيلاء على محفظة مفقودة قد يمنح لذة آنية، لكنه في النهاية يورث أضرارًا أخلاقية، وشعورًا بالذنب، ونتائج اجتماعية وخيمة.

الميزة المدهشة في الخير والشر أنّ أثرهما لا ينحصر في لحظة الاختيار فحسب، بل ينسحب على مجرى حياتنا كلّها. فالأفعال الصالحة تقرب الإنسان من قيمه الإنسانية، بينما الشر، مهما بدا قويًّا في البداية، لا يفضي في النهاية إلا إلى الفناء واليأس والانحدار. هذه النتائج تكشف أنّ الخير والشر لا يختلفان في الثمار فحسب، بل هما متضادان في الأصل والماهية، وآثار فردية واجتماعية.

ولا يكتمل الوعي الأخلاقي بالتركيز على الخير وحده وما يجلبه من رُقّيّ فردي واجتماعي، بل لا بد من إدراك أثر الشرّ المدمر أيضًا. فساد إداري، وفجوة طبقية، وتمييز اجتماعي ما هي إلا حصيلة خيارات غير أخلاقية، لا تفتك بالفرد وحده، بل تفتت أواصر المجتمع وتقوّض الثقة داخله. إنّ تأمل هذه النتائج الملموسة للشر يجعل إدراكنا لأهمية الالتزام بالمبادئ الأخلاقية أعمق وأكثر رسوخًا.

### مقاربة مطلقية الخير والشر أو نسبتهما في ثلاثة أبعاد

من أبرز الإشكاليات في فهم الخير والشر: هل هما مفهومان مطلقان أم نسبيان؟ إذ إنّ مسألة المطلق والنسبي تشكّل إطارًا ومبدأً حاسمًا في تحديد الفارق بينهما. فلو كانت المعايير مطلقة، لكانت الفوارق ثابتة لا تتبدّل؛ أما إذا كانت نسبية، فإن الحدود بين الخير والشر قد تتغيّر تبعًا للظروف.

كثيرون يرون أنّ الخير والشر أمران نسبيان مرتبطان بالبيئة والملابسات. فعلى سبيل المثال، قد يُعدّ قتل الحيوان عملاً خيّرًا بالنسبة إلى صيادٍ في الطبيعة يبحث عن قوتٍ يقي به نفسه وعائلته من الجوع، في حين أنّ الفعل ذاته يُعتبر شرًّا إذا قام به من يصطاد لمجرد الترفيه والتسلية. وهنا يبدو أنّ الحدود

بين الخير والشر ملتبسة، غير أنّ المعايير الأعمق - كالمبادئ الأخلاقية الإنسانية والنتائج بعيدة المدى - تساعد على تمييز هذه الحدود بوضوح أكبر.

### البعد الفردي للخير والشر

على المستوى الفردي، يتشكّل معنى الخير والشر من خلال الضمير، والتربية، والتجارب الشخصية. فكل إنسان يزن أفعاله وفقاً لقيمه الداخلية ومعتقداته الخاصة. فالشخص الذي يحترم الآخرين أو يتجنّب الكذب يرى في ذلك سلوكاً حسناً نابغاً من مبادئه وضميره. وعلى النقيض، فإن انتهاك هذه المبادئ على الصعيد الفردي يوّلّد شعوراً بالذنب وعذاب الضمير.

### المعايير الاجتماعية لتحديد الخير والشر

على الصعيد الاجتماعي، يشكّل أي مجتمع منظومة متكاملة من معايير وقيم وتشريعات ترسم الحدود الفاصلة بين ما هو خير وما هو شر. وما يُعد فضيلة في سياق ثقافي معين قد يُنظر إليه في مجتمع آخر على أنه أمر ثانوي أو حتى مستهجن. على سبيل المثال، قد يُعتبر تناول الطعام باليدين علامة على الاحترام والود في بعض الثقافات، بينما يُصنّف في مجتمعات أخرى ضمن السلوك غير المهذب. هذه التباينات الثقافية تُبرهن على أن تصور المجتمعات للخير والشر ليس ثابتاً ولا موحّداً، وأن المجتمع يعمل على ترسيخ هذه القيم عبر آليات التحفيز الاجتماعي أو الردع والعقاب. إن التشريع الاجتماعي يضطلع بدور محوري وأساسي في تحديد وتجسيد مصاديق الخير والشر وتأطيرها ضمن السياق العام للمجتمع.

### البعد الفلسفي والديني للخير والشر

إن النظرة الفلسفية إلى الخير والشر تتجاوز تجارب فردية واجتماعية، لتسعى إلى الكشف عن ماهية هذه المفاهيم وجذورها. فالفلاسفة يقارنون هذه القضايا بمناهج تحليلية مختلفة. على سبيل المثال، كان [إيمانويل كانط](#) يرى أنّ معيار الأخلاق هو أداء الواجب، وأن قيمة الفعل الأخلاقي تتحدد بنيته وقصده، لا بنتائجه الخارجية. وعلى النقيض، دافع بنتام وجون ستيوارت ميل عن مذهب "النتائجية"، معتبرين أنّ الخير والشر في أي فعل إنما يُقاسان بآثارهما على أكبر عدد ممكن من الناس. أمّا نيتشه فقد قدّم رؤية نقدية وفوق-أخلاقية، حيث رأى أنّه ينبغي تجاوز القيم التقليدية والسعي إلى ابتكار قيم جديدة وصياغة ذاتية للمعنى.

وفي الفكر الإسلامي، لا يُختزل تمييز الخير والشر في العُرف أو التجربة فحسب، بل يستند إلى هداية العقل وإرشاد الوحي معًا. فالإسلام، إذ يؤكد أنّ العقل "حجة باطنية" لدى الإنسان، يدعونا إلى التفكّر والتدبّر لنذكر آثار أفعالنا فنميز بين الحسن والسيئ. وفي الوقت نفسه، ترسم التعاليم الإلهية، أي القرآن الكريم وسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - خطوطاً أوضح للسلوك الأخلاقي. ومن هنا، اعتُبرت بعض القيم الأخلاقية كالعدالة، والأمانة، والصدق، وحب الخير للآخرين، قيمًا مطلقة وخالدة لا يطالها الزمن. فقد أمر الله تعالى في كتابه بالعدل والإحسان، ودعا النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى التعاطف والإيثار.<sup>1</sup>

وبهذا المنظور يمكن القول: إنّ المعايير الأخلاقية في الإسلام، مثل العدالة والأمانة، هي معايير مطلقة، حتى وإن اختلفت صورها ومظاهرها العملية من مجتمع إلى آخر. فربما يختلف مظهر الكرم أو العطاء من ثقافة إلى أخرى، لكن جوهر هذه القيمة ثابت لا يتبدّل، لأنّ الفطرة الإنسانية واحدة لا تتغير. إنّ التأمل في الفرق بين الخير والشر يبيّن لنا أنّ صورتها ومظاهرها قد تتبدّل بتبدّل الثقافات والأزمنة، غير أنّ المبادئ الأخلاقية الأساسية - كالعدل، والصدق، والرحمة - تظل دوماً منارات تهدي الإنسان في مسيرته. فترسيخ هذه القيم هو سبيل الارتقاء والوحدة المجتمعية، بينما إهمالها هو بداية الانهيار الأخلاقي.

وعلى كل فرد أن يزن قراراته بميزان آثارها على الآخرين والمجتمع، وأن يستشير أهل الخبرة والعقلاء في المواقف الحرجة. فمثل هذه التوجيهات تجعل اختياراتنا أكثر وعياً ومسؤولية. وفي النهاية، تبقى القيم الأخلاقية، رغم ما يواجهها من تحديات يومية واختلافات ثقافية، بمثابة المصابيح التي تضيء دروب القرارات وترسم ملامح مستقبل الفرد والمجتمع على حد سواء.

<sup>1</sup>. أَعَدَلُ النَّاسِ مَنْ رَضِيَ لِلنَّاسِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ، وَكَرِهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ. (من لا يحضره الفقيه: ج 4، ص 395)